

رأس الحركة الجماهيرية ، حتى فيما يتعلق بالمطالب الجزئية الصغيرة التي لا يتردد المستعمرون عادة في تلبيةها لغرض امتصاص النقبة (وقد ادرك البريطانيون متأخرين هذه الامكانية التي خُف من الحاحها بالنسبة لهم وجود العميل الصهيوني الاكفا) ثالثا : العنف اليهودي (الحاميات - شعار اليد العاملة اليهودية فقط - الخ) مضامنا الى العنف الاستعماري (الطريقة التي قمست فيها انتفاضة ١٩٢٩) .

ان الحديث عن ثورة ٣٦ - ١٩٣٩ يستلزم وقفة خاصة عند الشيخ عز الدين القسام ، فبالرغم من الكثير الذي كتب عنه الا انه بوسعنا ان نقول بان هذه الشخصية الفريدة ما تزال ، وربما مستظل ، شخصية مجهولة في الحقيقة . ان معظم الذي كتب عنه قد مسه من الخارج فحسب . وبسبب هذه السطحية في دراسة شخصيته لم يتردد عدد من المؤرخين اليهود في اعتباره «درويشا متعصبا» ، فيما اهمله الكثيرون من المؤرخين الغربيين ، وفي الواقع يبدو ان الاخفاق في ادراك العلاقة الجدلية بين الدين والنوازع الوطنية في العالم المتخلف هو المسؤول عن التقليل من اهبة الحركة القسامية . ولكن مهما كان الرأي في افكار القسام ، فما لا ريب فيه ان حركته (١١/١٢ - ١٩٣٥ / ١١/١٩) كانت نقطة انعطاف لعبت دورا مهما في تقرير شكل متقدم من اشكال النضال ، اذ انها وضعت زعامات الحركة الوطنية الفلسطينية التقليدية ، التي كانت قد انشقت على نفسها وتشتتت وتشردت ، امام امتحان لا يمكن الفرار منه . ولعل شخصية القسام تشكل في حد ذاتها نقطة التقاء رمزية لمجموعة هائلة من العوامل المتداخلة التي تشكل في مجموعها ما صار يسمى تبسيطا بالقضية الفلسطينية : فد « سوريته » (هو من مواليد جبلة ، قضاء اللاذقية ، ١٨٧١) تمثيل للعامل القومي العربي في المعركة . و « ازهرته » (فقد درس في الازهر) تمثيل للعامل الديني - الوطني الذي كان يمثله الازهر في بداية القرن . و « نضاليته » (فقد اشترك في ثورة جبل حوران السورية ضد الفرنسيين من ١٩١٩ - ١٩٢٠) وحكم بالاعدام) هي تمثيل لوحدة النضال العربي . وقد جاء القسام مع الشيخ محمد الحنفي (المصري) والشيخ علي الحاج عبيد الى حيفا في ١٩٢١ ،

كما نلاحظ بسهولة ، هما في الواقع سبب واحد ، وتبدو العبارات التي صيغ بها مفضاضة ولا تقود الى اي معنى واضح . ولكن اللورد بيل يضع ما يسميه بـ « عوامل ثانوية » ساعدت على نشوب « الاضطرابات » وهي : ١ - انتشار الروح القومية العربية خارج فلسطين . ٢ - ازدياد هجرة اليهود منذ سنة ١٩٣٣ . ٣ - الفرصة المتاحة لليهود بالتأثير على الرأي العام في بريطانيا . ٤ - عدم ثقة العرب في اخلاص حكومة بريطانيا . ٥ - نزح العرب من استمرار شراء الاراضي من قبل اليهود . ٦ - عدم وضوح المقاصد النهائية التي ترمي لها الدولة المنتدبة . اما قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية آنذاك ، فان مهمها لاسباب الثورة يمكن استنباطه من الشعارات الثلاثة الاساسية التي كانت تتوج بها مجسوع مطالبها ، وهي : ١ - الوقت الفوري للهجرة اليهودية . ٢ - حظر نقل ملكية الاراضي العربية الى اليهود . ٣ - اقامة حكومة ديمقراطية يكون النصيب الاكبر فيها للعرب وفقا لغالبيتهم العددية (٦٦) . على ان هذه الشعارات ، بالصيغ المفضاضة التي كان يجري من خلالها ترادها ، ظلت غير قادرة على التعبير عن حقيقة الموقف ، والواقع انها كرست الى حد بعيد هيمنة القيادة الانتطاعية على الحركة الوطنية .

ان الاسباب الحقيقية للثورة ، في الواقع ، هي وصول حدة التناقض في عملية انتقال المجتمع الفلسطيني من الاقتصاد الزراعي - الانتطاعي - الاكثريكي ، العربي الى الاقتصاد الصناعي البورجوازي اليهودي (الغربي) الى ذروتها ، كما رأينا في الصفحات السابقة . ان عملية تعميق حالة الاستعمار وتجذيرها ، ونظفها من حالة الانتداب البريطاني الى حالة الاستعمار الاسكاني الصهيوني ، وصلت الى ذروتها ، كما رأينا ، في منتصف الثلاثينات ، والواقع ان قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية قد ارغبت على تبني شكل الكفاح المسلح لانه لم يعد بوسعها ان تظل متربمة على سدة هذه القيادة في وقت وصل فيه التناقض الى شكل صدامي حاسم . وقد لعبت عوامل متناقضة ومختلفة في دفع القيادة الفلسطينية آنذاك الى تبني شكل الكفاح المسلح : اولا : حركة عز الدين القسام . ثانيا : سلسلة الاخفاقات التي منيت بها هذه القيادة طيلة فترة تكلسها فوق